

## الرأفة والرحمة في دعوة الأنبياء



المتأمّل في دعوة الأنبياء الناس إلى التوحيد يرى أنَّ الْبُعْدُ الحقيقى لهذه الدعوة هو الْبُعْدُ التربوي والتعليمي والتوجيهي ومحاولة بيان فساد الآراء أو القناعات التي يعتقدونها وإرشادهم برفقٍ ولينٍ إلى صلاحهم وسعادتهم بدون إساءةٍ أو أذىٍ أو إهانةٍ أو أيٍّ شكلٍ من أشكال عدم احترام إنسانيتهم بل كان دأب الأنبياء تزكية نفوس الناس وتصفية قلوبهم وأرواحهم وإصلاح سرائرهم وتنقية معتقداتهم؛ لأنَّ الإنسان إذا صَلَّجَ باطنَه صَلَّجَ طاھرَه وسلوکَه، وإذا سَلِّمت عقائده من الخطأ والضلالة سَلِّمَ الناس منه.

العنف منهج حكّام الجور:

يبيّن القرآن الكريم منهج العنف عند فرعون سواء في مواجهته للنبيٍّ موسى (ع) حيث قال تعالى: (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لَيُفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ وَيُذْرِكُ وَآلَهُنَّكَ وَقَالَ سَذِّقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنْ زَانَ فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ) (الأعراف/127). أو منهجيته في التعامل مع الناس قبل دعوة موسى (ع)، قال تعالى: (وَإِذْ رَأَى زَجَّابَنَا كُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسْوِمُونَ زَنْكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيِيُونَ زَنْكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) (البقرة/49).

قال تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَمَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلَّ يَأْطِلُعُ إِلَيْ إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَطْعُنُهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) (القصص/38).

وسرعان ما يُسارع الظالم إلى القتل مستخدماً العنف بأبشع صوره، قال تعالى: (وَاتْلُ

عَلَيْهِمْ زَبَانَ ابْنَيْهِمْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا فَنَدْقُبَ لِلَّهِ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقْبَلْ مِنَ الْآخِرِ قَالَ لَأُقْتُلَنَّ كَمَا قَالَ إِنَّمَا يَتَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (المائدة/ 27).

وهذا ما فعله قوم لوط مع نبيهم حيث عمدوا إلى نبذه وجماعته وإخراجهم من القرية، قال تعالى: (وَمَا كَانَ حَوَابٌ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرُجُوهُمْ مِنْ قَرِيَّتِكُمْ إِنْ هُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) (الأعراف/ 82).

وأمّا مع نبيه شعيب فهدّده بالرجم بدون رأفة أو مراعاة لأي اعتبار، قال تعالى: (قَالُوا يَا شَعَيْبُ مَا زَفْقَهُ كَثِيرٌ مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَذَرَكَ فِينَ ضَعِيفًا وَلَوْلَرْهُ طُوكَ لَرْجَمَنَاكَ وَمَا أَزْتَ عَلَيْهِنَّ بِعَزْيِزٍ) (هود/ 91).

## الرفق واللين منهج الأديان:

قال تعالى: (لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَرَى بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لَأُقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ رَبَّ الْعَالَمِينَ) (المائدة/ 28)، وما أروعها من مواجهة بين اثنين أحدهما يخاف الله والآخر لا يخافه، فالتهديد بالقتل يواجهه بالنهر والدعوة إلى مخافة الله وعدم الوقوع في المعصية.

وهذا نبيه لوط الذي كان قومه يرتكبون أعظم الفاحشة، ومع ذلك لم يعاملهم بالعنف والقسوة، ولم يسلّم في وجههم سيف الدين، بل راح يعظهم ويقدم لهم دليلاً ليس دينياً، وإنّما أمر عقلٍ مفاده أنّ هذا الفعل لم يسبقكم إليه أحد من قبل، فلو كان فيه جهة حسنة لفعله ممّا سبقكم من الأعمم، قال تعالى: (وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتَنَا الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ) (الأعراف/ 80).

قال تعالى: (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤْدِي إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤْدِي إِلَيْكَ إِلَيْهِمْ إِلَيْهِمْ قَاتِلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَاتِلُوا لَيْسَ عَلَيْهِمْ قَاتِلُوا فِي الْأَمْرِ بَيْنَ سَبَيلٍ وَيَقُولُونَ عَلَيَّ اللَّهَ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (آل عمران/ 75).

ونقرأ في دعوة نوح (ع) الحكم والأسلوب الهدى فهو يدعو قومه إنطلاقاً من خوفه عليهم وعلى آخريهم، فهو المبلغ لهم والناموس الأمين كما يعبر كتابه وليس الحاكم المسلط عليهم، قال تعالى: (لَقَدْ أَرَسْلَنَا نُوحًا إِلَيْ فَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٌ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ كُمْ عَذَابَ عَلَيْكُمْ عَظِيمٌ \* قَالَ إِلَهٌ الْمَلَائِكَةُ قَوْمِهِ إِنَّمَا لَنَذِرَكَ فِي صَلَالَةٍ مُبَيِّنٍ \* قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالٌ وَلَكُمْ رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* أُبَلِّغُكُمْ رَسَالاتِ رَبِّي وَأَنْهِي لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (الأعراف/ 59-62).

وهذه دعوة بقية الأنبياء من صالح (ع) إلى هود (ع) إلى غيرهم من أنبياء الله الذين ذكرهم القرآن الكريم ولا ترى في دعوتهم إلا الوعظ والتذكير والدعوة إلى التأمل ومراجعة الذات وبيان المعارف الإلهية والنعم التي أنعمها الله علىبني البشر وغيرها من الأساليب التي لا تنطوي إلا على المحبة والرفق والخوف على الآخرين والتنبيحة بدون عنف أو فسدة، قال تعالى: (وَإِلَيْهِمْ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٌ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ رَقَاهُ اللَّهُ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلُونَ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْتِي أَخْذُكُمْ عَذَابٌ أَلَيْمُ \* وَإِذْ كُرُوا إِذْ جَعَلْتَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوْأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنَاهُ خُذُونَ مِنْ سُبُّهَا وَلَهَا قُصُورًا وَتَنَاهُ حِتَّونَ الْجِبَالَ بِيُوتَهَا فَمَادِكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثُرُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (الأعراف/ 73-74).

قال تعالى: (وَإِلَيْهِمْ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٌ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمَّا وَفَوْا الْكَيْلَ

وَالْمَيْزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النِّسَاسَ أَكْثَرَ يَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا) (الأعراف/ 85).

وفي حوار نبيٍّ ﷺ إبراهيم مع أبيه ترى عظمة الرحمة والقلب الرؤوف والدعوة اللينة، قال تعالى: (إِذْ فَتَاهَ لَأَبِيهِ يَأَةً أَبَتْ لَهُمْ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا \* يَأَةً أَبَتْ إِنَّهُ يَقْدِمُ جَاهَنَّمَ مِنَ الْعُلُومِ مَا لَمْ يَأْتِ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا \* يَأَةً أَبَتْ لَا تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلَّهِ حُمَّانَ فَتَاهَ كُوْنَ لِلشَّيْطَانَ أَرَاغِبٌ أَرْتَاهُنْ آلَهَتِي يَأَةً أَبَتْ قَالَ أَرَاغِبُ لَهُنْ لَهُنْ لَهُنْ تَاهَ لَهُنْ جُمَدَكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا \* قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَلَامٌ طَغَفِيرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِرِّي حَفِيرًا \* وَأَعْتَذْنَ لُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوكُونَ بِدُعَائِ رَبِّي شَقِيرًا \* فَلَمَّا اعْتَذَرَ لَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْفُوبَ وَكُلَّا جَعْلَنَ زَبِيرًا) (مريم/ 42-49).

وأمّا في مواجهة موسى (ع) لفرعون، ورغم التسلط والاستكبار والعنوّ الذي كان يمارسه فرعون ضدّ شعبه نرى أن ﷺ تعالى يأمر نبيه بالتعامل معه بالحسنى، قال تعالى: (إِذْ هَبْ أَنْتَ وَأَخْوْكَ بِأَيْدِي وَلَا تَنْهِيَّا فِي ذِكْرِي \* إِذْ هَبَّا إِلَيَّ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى \* فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْذَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) (طه/ 44-42).

وفي الخطاب الإلهي لبني إسرائيل نقرأ قوله تعالى: (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَيَّ يَسْنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّهُ مَنْ قَتَلَ النِّسَاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَخْيَاهَا فَكَأَنَّهُ مَنْ قَاتَلَ النِّسَاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّهُمْ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمْ يُسْرِرْ فُونَ) (المائدة/ 32).